جمالية تلمسان من خلال بعض كتب التاريخ والرحلة

إدريس بن مصطفى [1]

1 -تعريف المدينة:

المدينة منطقة استيطان حضرية ذات كثافة سكانية كبيرة ولها أهمية معينة تميزها عن المستوطنات الأخرى، ويختلف تعريف المدينة من مكان إلى آخر ومن وجهة نظر إلى أخرى، وقد نشأت المدن كظاهرة عمرانية قديمة في الشرق الأوسط وبالتحديد في مصر والعراق وباكستان الحالية[2]، وكان ظهورها مرتبطا بشكل كبير بتقدم المعرفة الإنسانية والأساليب الفنية المستخدمة.

في العصر الحديث قامت العديد من الدول بوضع شروط معينة لتحديد ما إذا كانت المستوطنة مدينة أم لا، كما أن العلماء والمؤرخين لم يتفقوا على مستوطنة محددة لتعتبر أول مدينة في التاريخ، بل لم يتفقوا حتى على تسمية المستوطنات مدنا أو قرى، إلا أن أقدم المدن التي اكتشفت آثارها موجودة في الوطن العربي في العراق والشام ومصر القديمة. كما أن المدن في معظمها كانت مجرد قرى صغيرة ولم تصبح مدنا إلا بعد مرور فترة طويلة من الزمن.

تعد أغادير المهد الأول لتلمسان وهي الحاضرة التي بنيت على أنقاض وأطلال بوماريا، المدينة الرومانية، وقام العرب المسلمون بفتح تلمسان بقيادة عقبة بن نافع ثم أبي المهاجر دينار وذلك أثناء القرن الأول للهجرة.

ولم يستوطن العرب الفاتحون المنطقة في بداية الأمر، بل واصلوا من خلالها فتوحاتهم بالمغرب الأقصى والأندلس، لكنهم تركوا بها أفرادا قلائل أسندت إليهم مهمة تعليم الناس أمور دينهم، فتعربت المنطقة وصارت مصرا إسلاميا.

---

1 قسم العلوم الإنسانية جامعة الدكتور الطاهر مولاي- سعيدة

2 جوده حسنين جوده وفتحي محمد أبو عيانه، قواعد الجغرافيا العامة، دار المعرفة، الجامعية، الإسكندرية، 1982، ص420

فما هي القيم الجمالية التي تحملها هذه الكلمات التي أطلقت على المنطقة أو المدينة؟وما هي أسباب ومواطن انبهار وإعجاب الرحالة والمؤرخين والشعراء بها؟

جمالية المدينة من خلال التّسمية:

يعرّف ابن خلدون الجمال بأنه" كل مدرك كان حين النظر إليه مناسبا للنفس المدركة، ما يجعلها تلتذّ بإدراك ملائمها[1]، ثم يستطرد قائلا ((ولهذا كانت الرّياحين والأزهار العطريات أحسن رائحة وأشدّ ملائمة أشكاله وتخاطيطه التي له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع))، ويعرفه كانط :بأنه "ما يبهج كل الناس وبلا مرضيّة، كالغيبوبة، وبعض التخشّبات، مثل الاحتضار في بعض الأحوال، إنها- شعور بالفرح الكامل، المصحوب بنسيان الواقع، وقوله أيضا يكون جميلا كل ما يكون بلا تجريد، موضوع إرضاء للعقل والروح."[2].

كانت تلمسان تعرف لدى الرّومان الذين جعلوا منها مستعمرة ومركزا عسكريا لحراسة طرق القوافل التجارية والعسكرية ب"بوماريا"والتي تعني "البستان "أو الحدائق[3] وهذا ما يدلّ على أنها إذ ذاك كانت تحتوي على بساتين غناء وعيون أعطتها كساء وخضرة دائمة، كانت تبهر النّاظر إليها سواء كان من قاطنيها أو من الوافدين إليها لزيارتها أو لقضاء مصالحهم.

أما التسمية الثانية وهي "أغادير" التي أطلقت عليها في عهد البربر والمتكونة من شطرين بما يعادل في العربية "الجدار القديم" و"المدينة المحصنة" فكلاهما تحملان بعدا أو قيمة جمالية، فالأولى تحمل قيمة تاريخية ودينية كما تمثله الآثار التاريخية والدينية المنتشرة في مختلف الأمصار العربية والإسلامية في الوقت الحالي، باعتبارها جزءا من الإرث التاريخي والحضاري للإنسانية بشكل عام ولسكّان المنطقة المتواجدة بها بشكل خاص، إذ يذهب البعض إلى حد القول بأن الجدار المقصود في التسمية هو نفسه الذي أقامه الخضر عليه السلام، أي

1. ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، ط5، دار القلم، بيروت، 1984، ص424.
2. انظر لالاند، الموسوعة الفلسفية، ط2، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت باريس 2001، مجلد1، 131-132.
3. الوزان (الحسن بن مجمد)، وصف إفريقيا، ط2، دار الغرب الإسلامي، ج2، هامش 24، ص17.

الجدار المذكور في القرآن الكريم في قصة الخضر وموسى عليهما السلام، فيقول ياقوت الحموي المتوفيّ سنة 626هـ "سمعته ممن رأى هذه المدينة، وينسب إليها قوم منهم أبو الحسين خطاب بن أحمد بن خطاب بن خليفة التلمساني"[1]، في حين نجد ابن خلدون ينفي ذلك تماما باعتبار أن موسى عليه السّلام لم يطأ أرض المغرب، وأنه لم يفارق المشرق، وأن ملك بني إسرائيل لم يتسع ليشمل افريقيا[2]، وقد ذكرت في بعض المواطن ببلد الجدار، وهذا ما نجده في شعر لابن العباس التلمساني.

بلد الجدار ما أمرّ نواهـــا ***كلّف الفؤاد بحبّها وهواهـــــا

ياعاذلي كن عاذري في حبّها* يكفيك منها ماؤها وهواهـــا[3]**

ويتوافق هنا وصف الإدريسي في القرن الخامس عشر مع هذه التسمية حين يقول "وتلمسان مدينة أزلية ولها سور حصين متقن الوثاقة....." [4] أي أن المدينة ليست مستحدثة وإنّما تغوص في القدم والتاريخ، دون أن يتعرض إلى تفاصيل نشأتها أو حتى ذكر مؤسسيها، لكن يشير إلى مدينة تاجرارت التي أختطها يوسف بن تاشفين إلى جانب تلمسان القديمة (أغادير) لتصير المدينتان بلدا واحدا يمزج بين الحداثة والقدم بقوله:(وهي مدينتان في واحدة، يفصل بينهما سور)[5].

أما تسمية تلمسان والتي تستمر إلى يومنا هذا فتحمل الكثير من المضامين الجمالية، ووردت بشأن معناها الكثير من الشروح والتفسيرات، كلها تنم عن حسن وجمال، ففي لغة زناته سكان الإقليم، تتكون من قسمين: تلم ومعناها تجمع، وسان وتعني اثنان، ويرى الكثير أن في ذلك إشارة إلى التل والصحراء أو الصحراء والريف، فمن بعض ما ينسب للسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى في وصفها ما صورته "تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف"[6]

1. انظر الحموي(ياقوت بن عبد الله أبو عبد الله)، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، لبنان ج 2، ص 44.
2. الطمار محمد عمرو، تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص9.
3. المقري (احمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ط1، دار صادر، ج5، ص433
4. الإدريسي (أبي عبد الله) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1989، ص248.
5. نفسه، الصفحة ذاتها.
6. المقري، المصدر السابق، ج، 7 ص135.

وهنا تكمن أيضا صورة فنية اجتمع فيها متناقضان، الخصب والاعتدال في المناخ والقحط والحر، لان المقصود بالريف هنا هو الأرض الكثيرة الخصب والزرع[1].

ويذهب ابن الرقيق إلى أن "سان" من الكلمة قد يعني البر والبحر، وهناك كلمة أخرى تكوّن عند جمعها نفس الكلمة وهي تلمست ذات الأصل البربري التي تجمع بتلمسان وهي ذات معنى واحد وهو الأرض التي تنعم بالمياه والأعشاب والأشجار ومن هنا نرى بأن هذا التفسير هو الأقرب، فقد يكون استمرارا للتسمية الرومانية" بوماريا" التي كما سبق وأن أسلفنا بأنها تعني الجنان أو البساتين.

جمالية الموقع :

تغنّى الكثير من الشعراء والأدباء بموقع تلمسان فأصدروا بشأنها العديد من التشبيهات والأوصاف، فنجد لسان الدّين بن الخطيب يقول متغنيا بموضعها "ووضعت في موضع شريف، كأنها ملك في رأسه تاجه، وحواليه من الدّوحات حشمه وأعلاجه[2]، عبّادها يدها وكهفها كفها وزنتها زيانها، وعينها أعيانها، "[3] فنراه يشبهها - أي المدينة- بالملك، ويشبه الهضبة التي تعلوها(لالا ستي) بالتاج الذي يعلو رأس هذا الملك، أما الأشجار العظيمة الوارفة الأغصان التي تحيط بها فهي الحشم والحرس الذين يسهرون على خدمته بدون ملل أو كلل، ويشبه منطقة العبّاد بيد هذا الملك أما الكهف فهو كفها، وقيمتها بقيمة سكانها ومؤسسيها من بني زيان، بينما يشبه عيونها-منابع الماء- التي تقع بأعالي جبالهـــا بعيونها التي تحرسها من أي اعتداء خارجي[4].

ويسترسل لسان الدين واصفا حسن الموقع قائلا" حبتها أيدي القدرة عن الجنوب فلا نحول فيها ولا شحوب" أي أن الهضبة الواقعة إلى الجنوب من المدينة تمثل سدا أو حائلا يمنع توغل حرارة الجنوب وشحوبه إليها وكأن الطبيعة أشفقت عليها منها.

---

1. الرازي بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، لبنان، 1995، ص 112.
2. مفردها علج، وتعني الأعجمي الكافر، غير أنها كانت تعني في بلاد المغرب الإسلامي الأول ثم في العهد العثماني، الإفرنجي الذي اعتنق الإسلام وقيل هو كل صلب شديد، والجمع علوج وأعلاج، انظر الرازي، نفس المصدر، ص188.
3. المقري، نفس المصدر ج، 7 ص 135.
4. تحتمل كلمة أعيان تفسيرين هما. الجواسيس أو الاشراف. أنظر الرازي، نفس المصدر، ص185.

وإذا كان لسان الدين يشبهها بالملك، فنجد في موقع آخر من كتاب النفح من يشبهها بالعروس أي تأنيثها، لأن في الأنوثة مزيدا من الرقة والرهافة والجمال، فيقول(اقتعدت بسفح جبل ودوين[1] رأسه بسيط، أطول من شرق إلى غرب، عروسا فوق منصة والشماريخ[2] مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين ويطل منها على فحص أفيح[3] معد للفلاحة تشق ظهوره الأسلحة عن مثل أسنمة المهارى وتبقر في بطونه عند تدميث [4]الغمائم بطون العذارى)[5].

ويستطرد المقري في وصف هذه المدينة فيقول"وتوسطت قطرا ذا كور[6]عديدة تعمرها أمشاج[7]البربر والعرب مريعة الجنبات"[8]نلاحظ هنا أنه يعطيها صفة الامتياز عن ما عاداها من المدن والقرى المجاورة لها، فعادة ما تكون أحسن الأشياء في أواسطها، فالعقد مثلا تتوسطه لؤلؤة تمتاز بحسنها عن باقي حباته المكونة له. وما زاد تلك الكور جمالا هو اختلاف أجناس وألوان معمريها أي العرب والبربر، وهذا نفس ما أقرّه البكري أيضا في قوله (وإنها -أي تلمسان-قاعدة المغرب الأوسط لها أسواق ومساجد ومسجد جامع، وأنها دار مملكة زناتة وموسطة قبائل البربر ومقصد لتجار الآفاق. .) [9]

أما الإدريسي فيتكلم عن إستراتيجية الموقع ضمن دائرة أكبر، أي بالنسبة لما جاورها من الأمصار فيقول " ومدينة تلمسان قفل بلاد المغرب وهي على رصيف للداخل والخارج منها، لا بد منها والاجتياز بها على كل حالة..."[10] وكأني به يشبه المغرب الأوسط

---

1. دوين، تصغير لكلمة دون، وتفيد تقريب المسافة.
2. الشماريخ هي رؤوس الجبال وهي الشناخيب واحدتها شنخوبة، مفردها الشمراخ من الغرر ما استدق وطال، انظر ابن منظور، لسان العرب، ج 3 ص، 31.
3. الأفيح والفياح، كل موضع واسع وروضة فيحاء، ودار فيحاء واسعة، انظر ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، ج2، ص 551.
4. تليين وتسهل وهي السهول من الأرض، انظر، ابن منظور، نفس المصدر، ج2، ص149.
5. المقري، نفس المصدر، ج7 ص، 134.
6. الكورة بوزن الصورة المدينة والصقع والجمع كور، انظر الرازي، نفس المصدر، ج1، ص242. انظر أيضا، ابن منظور نفس المصدر، ج5، ص، 156.
7. المشج والمشيج كل لونين اختلطا، وقيل هو ما اختلط من حمرة وبياض، وقيل هو كل شيئين مختلطين والجمع أمشاج، أنظر، ابن منظور، نفس المصدر، ج2، ص367.
8. المقري، نفس المصدر، ج7، ص135.
9. البكري، المسالك والممالك، ج2، ص746.
10. الإدريسي، نفس المصدر، ص 250.

ببوابة كبيرة تمثل مدخلا رئيسا لبلاد المغرب الأقصى والأدنى، سواء لمن اتجه من الشرق نحو الغرب أو العكس، بينما تمثل تلمسان قفلا لهذا الباب العظيم الذي يتوجب على كل من أراد التنقل أفقيا أو عموديا فتحه وذلك من خلال المرور بالمدينة التي كانت تمثل منطقة ذات نشاط تجاري واقتصادي ومنطقة عبور نحو الشمال (أوروبا) أو الجنوب(الصحراء الإفريقية).

جمالية المدينة:

تلمسان التي سحرت الألباب رواء وأصبت النهى جمالا ووجد المادحون فيها المقال فأطالوا وأطابوا، فنجد المؤرخ والرحالة اليّعقوبي الذي تجول في المغربين الأدنى والأوسط في حدود سنة 260 هـ قد عبر عن انبهاره بعظمة هذه المدينة بما تحتويه من قصور ومنازل غاية في المتانة والمنعة، وما يتواجد بها من السكان –البربر- الذين يقطنون بها بقوله(ثم إلى المدينة العظمى المشهورة بالمغرب التي يقال لها تلمسان، وعليها سور حجارة وخلفه سور حجارة آخر وبها خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة وحولها قوم من البربر يقال لهم مكناسة)[1].

ولا نجد أحدا يستطرد ويطنب في وصف تلمسان أكثر من الوزان فيعطيها من خلال ذلك الوصف حركية حين يقول (وجميع الصنائع والتجارات بتلمسان_موزعة على مختلف الساحات والأزقة)[2] ويعبر عن انبهاره بما تحتويه من المباني المختلفة الأداء والأغراض، بداية بالمساجد الجميلة والصيّنة، والمدارس الحسنة الجيدة البناء المزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنيّة، ثم ينتقل بعدها إلى وصف ما تحتويه من السّقايات المتعددة التي تجلب إليها المياه عبر قنوات، لأن معظم العيون والمنابع تتواجد خارج المدينة، وهذا ما رأى فيه نقطة ضعف في تصميمها واختيار موقعها كعاصمة للدولة الزّيانية، إذ يقول بان العدو باستطاعته وبكل سهولة أن يقطع عنها المياه. [3]

ثم ينتقل بعدها إلى وصف القصر الملكي الواقع في الجنوب، فيشبهه بالقلعة الحصينة، نظرا لما كان يحيط به من أسوار جد

1. اليعقوبي، كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1988، ص112.
2. انظر الوزان، المصدر السابق، ص19.
3. نفسه، ص19.

مرتفعة، وهذا ما يتوافق مع وصف الآبلي لها حين يقول" وبها للملك قصور زاهرات "[1].

ينتقل الوزان بعدها من وصف الكل إلى الجزء، أي إلى القصور الأخرى الصغيرة والتي كان لكل منها خصوصياتها ولوازمها، بما في ذلك بساتينها وسقاياتها، وكلها مبني بشكل رائع وكامل العناية على حد تعبيره[2].

يعرج ليون الإفريقي على أطراف المدينة ليصف لنا أحوازها أي الأراضي المتاخمة لها والتي تدخل في حوزتها، بما تحتويه من دور جميلة للغاية تجعل سكّانها ينعمون بسكناها صيفا، وكأني به يريد القول بأن جمال المحيط بما يحتويه من كروم معروشة ذات الأعناب المختلفة الألوان والطيبة المذاق، وكذا أنواع الكرز الكثيرة التي لم ير الوزّان لها مثيلا[3]هي التي ترطّب جو المدينة وتجعله عليلا لا يعبئ السكان من خلاله بحرّ ووهج ورمضاء الصيف.

وهذا ما نجد الآبلي أيضا يتغنى به فيقول" اشتملت على المصانع الفائقة والصروح الشاهقة والبساتين الرائقة مما زخرفت عروشه[4] ونمقت غروسه ونوسبت أطواله وعروضه فأزرى[5] الخورنق[6] وأخجل الرصافة[7] وعبث بالسدير[8]"[9]، من هنا ندرك بأن تلمسان بما احتوته من قصور ودور ومنازل جميلة فاقت في بهائها نظيراتها في البلاد العربية وخاصة القصور الملكية. كل هذا يأتي معاكسا لحال

---

1. المقري، المصدر السابق، ج7، ص 134.
2. انظر الوزان، المصدر السابق، ص20.
3. الوزان، المصدر السابق، ص20.
4. عرش الكرم ويعرشه أي عمل له عرشا وعرشه إذا عطف العيدان التي ترسل عليها قضبان الكرم والواحد عرش والجمع عروش. انظر ابن منظور، المصدر السابق، ج6، ص 315.
5. حقره ونكره، انظر، ابن منظور، نفس المصدر، ج14، ص356.
6. الخورنق:نهر، والخورنق المجلس الذي يأكل فيه الملك ويشرب، فارسي معرب أصله خرنكاه، وقيل خرنقاه معرب، قال الأعشى ويجبى إليه السيلحون ودونها صريفون في أنهارها، والخورنق والخورنق نبت والخورنق اسم قصر بالعراق فارسي معرب بناه النعمان الأكبر الذي يقال له الأعور، وهذا هو المقصود من البيت، انظر ابن منظور، نفس المصدر، ج 10، ص 79.
7. قصر الرّصافة، حصن دون دار الخلافة ببغداد، مبني بالحجارة، وفيه بيعة عظيمة ظاهرها بالفص المذهب، أنشأه قسطنطين بن هيلانة، وجدد الرصافة وسكنها هشام بن عبد الملك. انظرياقوت، نفس المصدر، ج3، ص48
8. السّدير نهر، ويقال قصر وهو معرّب وأصله بالفارسية"سه دل" أي قبة فيها ثلاث قباب متداخلة وهو الذي تسميه الناس اليوم" سد لى" فعربته العرب فقالوا سدير، وقيل قصر قريب من الخورنق كان النعمان الأكبر اتخذه لبعض ملوك العجم. انظر ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 3، ص201.
9. المقري، نفس المصدر، ج7، ص 134.

المدن الأخرى التي تميزت حتى في تلك الفترة بالفوضى والاضطراب وانعدام الاستقرار على حد تعبير ابن خلدون (ويعظم عمران المدينة ويتسع فيكثرون.... وذلك أن الناس في المدن لكثرة الازدحام والعمران يتشاحّون حتى في الفضاء والهواء الأعلى والأسفل ومن الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر في الحيطان فيمنع جاره من ذلك إلا ما كان له فيه حق ويختلفون أيضا في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المسربة في القنوات وربما يدعي بعضهم حق بعض في حائطه أو علوه أو قناته لتضايق الجوار أو يدعي بعضهم على جاره اختلال حائطه خشية سقوطه ويحتاج إلى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره)[1].

ونجده هو الآخر في القرن التاسع الهجري يعطي وصفا للمدينة وما احتوته من قصور ومنازل (ولم يزل عمران تلمسان يتزايد وخطتها تتسع والصروح بها بالآجر والقرميد تعالى وتشاد، إلى أن نزلها آل زيان واتخذوها دارا لملكهم وكرسيا لسلطانهم، فاختطوا بها القصور المؤنقة والمنازل الحافلة فأصبحت أعظم أمصار المغرب ورحل إليها الناس من القاصية..... وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية)[2]. أي أنّ تلمسان كباقي المدن اتسعت عمرانيا بشكل مطرد منذ ظهورها وأنّ الزيانيين بدورهم حين سكنوها لم يكتفوا بما وجدوه بل استبحروا وتفنّنوا في اختطاط القصور والمنازل بما جعلها لؤلؤة المدائن وقبلة للناس بمختلف مللهم ومشاربهم.

وما كان يزد المدينة سحرا وفتنة هو ازديانها في فصل الربيع والصيف بحلة من الأشجار المختلفة الأزهار، التي تنتهي صيفا إلى ثمار مختلفة أشكالها، تسيل لعاب الزائر والناظر إليها، وقد تغنى الكثير من الرحالة والزوار وتفننوا في وصف ما احتضنته جنبات المدينة ودواخلها منها، وعلى رأسها حب الملوك الذي قال فيه لسان الدين بن الخطيب" إلا أنها بسبب حب الملوك مطمعة للملوك"[3] أي أنه يغري حتى الملوك الذين بإمكانهم بلوغ كل ماديات الحياة، إضافة إلى الكرز

1. عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، ص 408 – 409
2. عبد الرحمن ابن خلدون، العبر، ج، ص93.
3. المقري، نفس المصدر، ج7، ص، 135.

المتعدد الألوان والأشكال،[1] كما تميزت بمشمشها الرائع الحسن على حسب ما جاء في كتاب مسالك الأبصار"ومشمشها الذي يقارب في الحسن مشمش[2] دمشق"[3] إضافة إلى التين الشديد الحلاوة من النوع الأسود الغليظ الذي كان سكان تلمسان يبيسونه لتناوله شتاء والخوخ والجوز على كثرة[4] واللوز[5] فذهب البعض إلى حد تشبيهها بالجنة الحقيقية، فشبهوا ماءها بغير الآسن[6] على غرار عيون الجنة في قوله تعالى "من ماء غير آسن" بل يرى فيها البعض الجنة نفسها، وأنها تستحق أيضا شعر ابن خفاجة في قرطبة الزهراء إذ يقول صاحب النفح وأنا أنشد ساكنها
قول ابن خفاجة.

ما جنة الخلد إلا في منازلكم ****وهذه كنت لو خيرت أختار[7]

لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقرا**** فليس تدخل بعد الجنة النار

لم يترك السابقون شيئا من تلمسان إلا تغنوا به، فحتى أوديتها ومياهها أسالت حبر الكتّاب وهيأت قرائحهم للتغني بها نثرا أو شعرا، فنجد المقري يرى فيها أحسن مدائن الغرب ماء وهواء، استنادا إلى ما قاله ابن مرزوق: "يكفيك منها ماؤها وهواؤها، هواها المقصور بها فريد، وهواؤها الممدود صحيح عتيد[8]وماؤها برود صريد[9]" (10).

كما نجد صاحب مسالك الأبصار يصف شلالات "الوريط" فيقول بأن لها وقعا خاصا، ويسمع لها خرير على مسافات بعيدة، يمر بعدها في وسط البساتين ليرويها ثم ينتهي إلى البحر[11]، وهنا يذهب البعض

---

1. الوزان، المصدر السابق، ج2، ص20.
2. المشمش ضرب من الفاكهة يؤكل قال ابن دريد ولا أعرف ما صحته وأهل الكوفة يقولون المشمش وأهل البصرة مشمش يعني الزردالو وأهل الشام يسمون الأجاص مشمشا انظر، ابن منظور، نفس المصدر، ج6، ص 348.
3. ياقوت الحموي، خزانة الأدب، دار ومكتبة الأدب، بيروت، لبنان1987، ج5، ص145.
4. نفسه، الصفحة ذاتها.
5. الوزان، المصدر السابق، ص20.
6. الماء الآسن وهو الذي لا يشربه أحد من نتنه، انظر ابن منظور، المصدر السابق، ج13، ص 16.
7. المقري، المصدرالسابق، ج، 7 ص 134.
8. أي جاهز وكامل
9. صريد أي بارد، الصرد هو البرد وقيل شدته، ويوم صرد وليلة صردة شديدة البرد، انظر ابن منظور، المصدر السابق، ج 3 ص، 248.
10. المقري، المصدر السابق، ج 7، ص 133.
11. انظر ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج 5، ص145.

إلى تشبيهها بمدن الأندلس لوفرة مياهها وبساتينها([1]).

أما الآبلي فيتتبع تلك المياه من مصادرها أو منابعها الى غاية المدينة ويعطينا صورة عن كيفية توزّعها "وتنصب إليها من عل أنهار من ماء غير آسن تتجاذبه أيدي المذانب[2] والأسراب[3] الكفورة[4] خلالها، ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات بالقصور، وعليه الدّور والحمامات فيفعم الصهاريج ويفهق الحياض ويسقي ريعه خارجها مغارس الشجر ومنابت الحب"[5] ويبدو أن الكاتب هنا قصد شيئين أولهما أن يرسم لنا لوحة افتراضية ترسمها ريشة المياه وهي تأخذ مسارها من المنابع العالية نحو المصبات، وثانيهما هو إبراز وفرة المياه وزيادتها عن حاجة المدينة.

وفي الأخير لا يفوتنا أن نستشهد ببعض ما أنشده الشعراء بشأن تلمسان المحروسة بادئين بلسان الدين وهو يمدحها.

حيا تلمسان الحيا فربوعها ** صدف يجود بدره المكنـــــون**
ما شئت من فضل عميـــم إن ** سقى أروى ومن ليس بالممنون
أو شئت من دين إذا قدح الهدى أورى ودنيا لم تكن بالـــ دون**
ورد النسيم لها بنشر حديقة ** قد أزهرت أفنانها بفنـــون**
وإذا حبيبة أم يحيى([6]) أنجبت فلها ** الشفوف على عيون العين

ثم قول: الفقيه الكاتب العلامة الناظم الناثر أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري كاتب سلطان تلمسان أمير المسلمين أبي حمو موسى بن يوسف الزياني يمدحه ويذكر تلمسان المحروسة :

أيها الحافظون عهد الوداد*** جددوا أنسنا بباب الجياد**
وصلوها أصائلا بليال *** كلآل نظمن في الأجيـــــاد**
في رياض منضدات المجاني** بين تلك الربى وتلك الوهاد**
وبروج مشيدات المباني*** باديات السنـــا كشهب بواد**
رق فيها النسيب مثل نسيبي* وصفا النهر مثل صفو ودادي**
وزها الزهر والغصون تثنت** وتغــنت عليه ورق شواد**

---

1. ابن سعيد أبي الحسن المغربي، كتاب الجغرافيا، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1982، ص198
2. المجاري ومسيلات الماء في الحضيض أو أذناب الأودية وأسا فلها. انظر ابن منظور، نفس المصدر، ج1، ص391.
3. الحفر تحت الأرض
4. أي الشبيهة بالقبور.
5. المقري، المصدر السابق، ج 7، ص134.
6. يعني بحبيبة أم يحيى عين ماء بتلمسان من أعذب المياه وأخفها، وكانت جارية بالقصور السلطانية

وانبرى كل جدول كحسام** عاري الغمد سندسي النجاد**
وظلال الغصون تكتب فيه*** احرفا سطرت بغير مداد**
تذكر الوشم في معاصم خود** نصبت فوقه ذوات امتداد**
وكؤوس المنى تدار علينا** بجنى عفة ونقل اعتقاد**
واصفرار الأصيل فيها مدام** وصفير الطيور نغمة شاد**
كم غدونا بها لأنس ورحنا** جادها رائح من المزن غاد**
ولكم روحة على الدوح** كادت أن تريح الصبا لنا وهو غاد**
رقت الشمس في عشاياه ****حتى أحدثت منه رقة في الجماد
جددت بالغروب شجو غريب** هاجه الشوق بعد طول البعاد**

من هنا نخلص إلى القول بأن تلمسان ومنذ نشأتها باسم "بوماريا" والى غاية عهد بني زيان وهي تمثل منطقة جذب وسحر طبيعي أضفت عليه يد الإنسان سواء الروماني أو البربري لمسة فنية، جعلت ها قبلة للرحالة والشعراء الذين تغنوا بحسنها، كل ذلك ساعد أيضا على ظهورها كمركز إشعاع علمي ومعرفي، إذ كان ملوكها وأمراؤها يحبون العلوم والفنون والآداب ويستقطبون العلماء من كل أنحاء العالم في وقت حيث كانت عبقرية الدول الأوربية لا تزال تعيش في سبات عميق.

قائمة المصادر والمراجع:

-المقري (أحمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان 1408ه/1988م.
-ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، ط5، دار القلم، بيروت، 1984.
-ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1984.
-الوزان (الحسن بن محمد)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1983م.
- الحموي(ياقوت بن عبد الله أبو عبد الله)، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، لبنان 1397ه/1997م.
-الحموي (تقي الدين)، خزانة الأدب، دار ومكتبة الأدب، بيروت، لبنان1987.
-الإدريسي (أبي عبد الله)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1989.
-اليعقوبي، كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان 1988.
-الرازي بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، لبنان، 1995.
-جوده حسنين جوده وفتحي محمد أبو عيانه، قواعد الجغرافيا العامة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1982.
-الطمار محمد عمرو، تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
-لالاند، الموسوعة الفلسفية، ط2، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت-باريس 2001م.